الحكايات الشعبية ودورها في بناء ثقافة وطنية عربية

ريم الشريف*

الملخص

لقد اخترنا عنوانًا لورقتنا العلمية "الحكايات الشعبية ودورها في بناء ثقافة وطنية عربية" ولعل من أبرز الدوافع التي أدت بنا لاختيار هذا الموضوع هو عالم الحكايات الشعبية، ودورها المحوري في الحفاظ على الهوية القومية من الذوبان والتلاشي، أمام القوة الإعلامية الكبيرة التي جعلت كل الأفكار مشتتة وبعيدة من الواقع. لذلك ارتأينا البحث في الحكايات الشعبية المليئة بالسحر والخيال واكتشاف التشابه الكبير بين مختلف حكايات الوطن العربي كفلسطين، الجزائر، تونس، المغرب، وغيرها من الدول العربية والغربية التي تمتاز كل منها بإرث شعبي كبير...فعلى الرغم من بعد المسافات واختلاف اللغة والعادات والتقاليد إلا أننا نجد التشابه في النص الحكائي الشعبي. لذلك تعد الحكاية الشعبية ارثًا شعبيًّا كبيرًا، وتراثًا وطنيًّا يعبّر عن حضارة بلاد بكل تفاصيلها ، على الرغم من مشاركتها العديد من الدول العربية والغربية في الحكاية نفسها، في بعض الأحيان، مع اختلاف بسيط في عملية السرد. ولذلك اعتمد نا التحليل في السعي الى الإجابة عن بعض التساؤلات التي سنشرح فيها كيفية المحافظة على التراث من الذوبان، وسط هذا الزخم الكبير من الانحياز الي كل ما هو رقمي وتكنولوجي.

الكلمات المفاتيح: الحكاية الشعبية ـ الهوية ـ الثقافة ـ اللغة

مقدمة

يكتسي التراث أهمية بالغة في المحافظة على الهوية الوطنية وصيانتها وإحيائها، ويتجلى ذلك من خلال الاهتمام بالمخزون الحضاري بمختلف أشكاله، من ضمنه تكثيف العناية بالتراث الشفاهي بما فيه الألسن كمحمل

* استاذ في كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة القيروان، تونس، cherifryma03@gmail.com

للتراث الثقافي اللامادي الذي تتناقله الأجيال بصفة متواترة، ويشكل شهادة على الهوية الجماعية. إذ أن الهوية بما هي مجموع السمات والمميزات التي تميز الفرد من الجماعة، وتميّز فردًا من أخر، وجماعة بشرية من أخرى نظرًا للاختلاف الموجود بين الأمم من الناحية الجغرافية والثقافية والاجتماعية والنفسية.

وتتكوّن الثقافة الوطنية من عناصر جديدة في مقدمتها الدين والتراث والحكم والأمثال الشعبية والخرافات التي تتصل بعالم الحيوان والمعجزات، والتراث هو مخزون نفسي في ثقافة الجماهير لا يختلف في ذلك التراث الإسلامي عن التراث المسيحي أو اليهودي. وعلى هذا الأساس فإنّ الحكاية الشعبية مهما تعدّد انتسابها الجغرافي والتاريخي تبقى في رأي العديد من الباحثين تعبيرًا من تعبيرات الذاكرة الجماعيّة، ورافدًا من روافد الإرث الثقافيّ. لأنّ الحكايات جزء لا يتجزأ من ضمير الأمة العربية التي تحمل إرثًا معيّنًا يمثّل البصمة الخاصة بها، وأنّ النفس البشرية تتأثّر فتبدع، ويختلف هذا الإبداع، فيمكن أن يكون اكتشافًا ويمكن أن يكون أدبًا.

أهمية البحث

لعل أبرز الدوافع التي أدت بنا لاختيار هذا الموضوع هو عالم الحكايات الشعبية ودورها المحوري في الحفاظ على الهوية القومية التي كادت تتلاشى بسبب القوة الإعلامية الكبيرة التي جعلت كل الأفكار مشتتة وبعيدة من الواقع، ورغبتنا في البحث في نقاط التشابه بين الحكايات التي نرى أنها تشترك في الكثير من المعاني، وتختلف صياغتها باختلاف اللهجة والراوي. ومع ذلك، كلّها حكايات تعمق الهوية لأن الانسان مكوّن من مجموعة من الروابط الانسانية والفكرية العقائدية التي تحرّكه وتجعله يحنّ إلى الماضي. وهذا الماضي نجده في تراثنا وحكاياتنا التي نعيد في بعض الأحيان صوغها بحسب الظرف المتاح.

أهداف البحث

نظرًا لأهمية الموضوع وانتشاره الواسع في الدول العربية والغربية كلّها، وظهور الحكايات الشعبية من جديد في مختلف الوسائل السمعية البصرية دون استثناء، حدّدنا مجموعة من الأهداف:

أولًا: البحث في قيمة الحكاية الشعبية في الأدب الشعبي والموروث الثقافي.

ثانيًا: التعرّف إلى قيمة الحكاية الشعبية اليوم في الدول العربية وعلاقتها بالمجتمع بمختلف طبقاته.

ثالثًا: تقديم بعض الحكايات الشعبية التي تكون ذات قاسم مشترك بين الشرق والغرب.

تساؤلات البحث

عمدت الباحثة في هذا العمل الذي يقوم على قسمين: نظري وتطبيقي إلى الإجابة على تساؤلات البحث التالية: ما هي الحكاية الشعبية؟ وكيف للحكاية الشعبية أن تحدد الهوية الوطنية ؟ وما هي العوامل التي تعمل عليها الحكاية الشعبية في بناء الثقافة الوطنية في ظل هذا الغزو الثقافي الجديد؟ ومقاربة ما تمثله من إشكاليات.

منهجية البحث

اعتمدنا في هذه الورقة على الآليات الإجرائية التالية:

-شرح مفهوم الحكاية الشعبية وتطرق إلى أدق تفاصيلها ونشأتها.

- تحديد الفرق بين الحكاية الشعبية والأسطورة مع تقديم جملة من الشواهد التي تُدعمُ الفكرة.

- رصد التشابه في بنية الحكاية الشعبية المتوارثة مع تغيّر بسيط في التسمية أو في سرد الأحداث، في كل من الدول الغربية والعربية، وتبيان دورها الكبير في الحفاظ على الهوية الوطنية.

اشتغلنا على مجموعة من دراسات ومراجع عربية وغربية جعلتنا نستخلص أن الحكاية الشعبية لها دور كبير في المحافظة على الهوية الوطنية وعلى إعادة نشر الحكاية اليوم في عصر الثورة التكنولوجية، وأنّ لها بالتالي دور كبير في المحافظة على النواة الرئيسة للأسرة وللطفل، كونها تخرجه دائرة العولمة المفرطة التي أصابت العديد من الأطفال بأمراض مختلفة أبرزها التوحد وقلة التركيز.

١. مفهوم الحكاية الشعبية

الحكاية الشعبية هي مرآة عاكسة للمجتمع الذي نشأت فيه، فهي تعكس جوانبه الاجتماعية والفكرية والدينية وهي تعدّ من أهم الأشكال الشفوية التعبيرية، وخلاصة تجارب الأجيال يتم وضعها في قالب قصصي مشوق، زاخر بالعبر والقيم النبيلة، تتجلّى فيها حكمة الشعب. وهي خلاصة واقع اجتماعي ثقافي سياسي حتى إنّه يمكن القول إنّ: «الحكاية الشعبية شكل قصصي يّتخذ مادته من الواقعين النفسي والاجتماعي الذي يعيشه الشعب، وقد دفع تنوّع موضوعاتها إلى استخراج عدّة أنواع منها، ففرعوا عنها حكايات الواقع الاجتماعي والحياة اليومية والحياة

المعيشية وحكايات الحيوان وحكايات الألغاز... (عبد الحميد،٢٠١٠، ص ٩٦-٩٧). وهكذا يمكن أن نلاحظ أن عددًا كبيرًا من الحكايات الشعبية التعبيرية تتنازع انتماءات واحدة، وهذا ما أجمع عليه العديد من الباحثين والأدباء، في مجال الحكاية الشعبية.

أما في الغرب وبالتحديد في ألمانيا فيعود لأعمال الأخوة (Wilhem Grimm and Jacob Grimm) بوضع الأسس الأوليّة لدراسة الخرافات والقصص الشعبية، وقد جعل هذان الأخوان من الحكاية الشعبية زادًا لا للشعب الألماني فحسب بل للعالم كله. إذ يمكن القول إنّ القصة هيٰ "أثر قصصي ينتقل مشافهة أساسًا يكون نثريًّا يروي أحداثًا خياليّة لا يعتقد راويها ومتلقيها حدوثها الفعلي، وتنسب عادة للبشر والحيوانات والكائنات الخارقة تهدف إلى التسلية وملء الفراغ وإعطاء العبرة". (بورايو،٢٠٠٧، ص،١٨٥).

فالحكاية إذن تتفرع إلى عدّة أنواع: حكايات الواقع التاريخي التي تروي البطولات الشعبية والأساطير الحربية، وحكايات الواقع الاجتماعي التي تعكس الوضع الاجتماعي لتخرج منه بمغزى وعبرة ومنها حكاية عبد العزيز العروي "قرد موالف" التي قال فيها الراوي إنّ الفرد يجب أن يرضى بالنصيب والقسمة، وأن يعيش كما كُتب له، لأنّ الفرد لا يمكنه أن يمتلك العالم دون أن يشقى ويسعى.

في الجزائر، وفي الموضوع نفسه، نجد حكاية «الدجاجة والسردوك" والتي هي أيضًا تتحدث عن النصيب، ولكن بصيغة مختلفة أقرب إلى الأواسط الشعبية الجزائرية. وهكذا نفهم أن للحكاية خصائص تعليمية كبيره تعمل على ترسيخ قيم ومبادئ مهمة في المجتمع. وتتميز عن باقي الأنواع الأدبية الأخرى، ويمكن أن نظهر ذلك من خلال طرح بعض النقاط:

---

[1] ولد جاكوب جريم عام١٧٨٥ في مدينة هانا وولد فليهلم جريم في عام١٧٨٦، توطدت العلاقة بين الأخوين في مرحلة مبكرة من حياتهما. ومن أقدم الدراسات الرائدة في الأدب الشعبي ما جمعه الأخوان جريم و"مكسيم جوركي" بروسيا من حكايات شعبية إلى جانب بعض المحاولات الأخرى من مختلف أرجاء العالم أهمّها "دراسة الفلكلور قضاياه وتاريخه" للباحث الروسي "يوري سو كولوف" الذي يعد من الأوائل في العالم الذين انتبهوا إلى أهمية الثقافة الشعبية.

١. الحكاية الشعبية هي جنس أدبي متوارث عبر التاريخ: "الحكاية الشعبية ليست من ابتكار لحظة معروفة أو موقف بل انتقلت عن جيل إلى جيل سواء كانت مدونة أو منطوقة"(حسين،١٩٩٣، ص٥٨).

٢. الحكاية لا يُعرف لها مؤلف لأن الجميع يمكن أن يستحضرون حكاية ويروونها، وفي المقابل لا يمكن أن يكون الشعب مؤلفًا، فهي تنتقل من شخص إلى آخر بحرية ولا يزعم احد أن الفضل يعود له (عبد الحميد، ١٩٦٨، ص ١١)، وبالتالي فالكل مشارك في صياغة الحكاية بحسب موقعه وزمانيه وطريقة سرده.

٣. الحكاية، وبحسب العديد من المرجعيات، يمكن القول إنها تتميز بالواقعية لأنها تسرد أحداث وتعالج قضايا الواقع الإنساني من كل جوانبه، وبالتالي فهي تختلف عن الأسطورة والخرافة في مرجعها.

٤. أبطال الحكاية في الغالب هم شخصيات واقعية تقدم لنا تجربتها لتكون عبرة للغير وخاصة الأطفال ليتعلموا الحكمة والشجاعة والصبر، كما في قصص أبو زيد الهلالي وبطولاته الحربية أو أبطال صنعتهم الحياة وأعطتهم الحكمة والفلسفة.

٥. تتّسم الحكاية بجانب تثقيفي توعوي إلى جانب ما توفره من متعة؛ فهي تقوم بالتفسير والتحليل والشرح مما يجعل المتلقي يعمل على فكّ المعنى في بعض الجلسات والبحث عن المغزى المقصود. وهنا نستخلص أنّ مختلف الأمثال التي نتناولها اليوم هي من مخلفات القصص والنوادر والمواقف التي تكون في العديد من المرات مطابقة للموقف الذي وُجد فيه الفرد.

٦. تنتقل الحكاية من جيل إلى جيل من طريق المشافهة، وبهذا تكون قابلة لزيادة والنقصان، وبهذه الطريقة تأخذ الحكاية الشعبية أسلوب الشكل المفتوح الذي يترك فيه الراوي مطلق الحرية بما يتلاءم وقدرته على السرد والتصوير وعلى مستوى الجمهور الذي يواكب هذه الأحداث.

وهنا نستخلص أننا أصبحنا نشاهد في الآونة الاخيرة العديد من المهرجانات التي تُحيي الحكاية الشعبية، وتسعى الى التعريف بها، والتي تكون موجهة بالأساس للأطفال لأنها تتميز بأسلوب ساحر في السرد تجعل المتلقي يصغي لها بشغف، كأنّه منوّم مغناطيسيًّا. وهنا سنعود إلى التحليل الفرويدي في قوله: "قد نتعلم في المستقبل كيف

نؤثر تأثيرًا مباشرًا ، بالاستعانة ببعض عقاقير كميات الطاقة وتوزيعها في الجهاز النفسي، وربما اكتشفنا إمكانيات علاجية أخرى لم نحلم بها ..."(النابلسي، لا ت . ص ٥٨-٥٩).

وبناء عليه، تجسّد الحكاية عنصرًا من عناصر التعبير الأدبي واسترجاع للواقع الاجتماعي والثقافي والاقتصادي والسياسي للأمة، كما أنها تعد جزءًا مهمًا من تراثنا العريق والماضي الجميل. فدراستنا للحكاية الشعبية هي الوقوف على الموروث الشعبي والوقوف على تطور المفاهيم الاجتماعية والإنسانية في هذا الجزء من العالم. قبل أن نبدأ في التحليل ونفهم الحكاية وأشكال انتمائها، سنقدم تعريفًا عن دلالة الحكاية الشعبية لغة واصطلاحًا:

١. أ . الحكاية لغة:

الحكاية الشعبية هي من فعل: حكي: الحكاية: كقولك حكيْتُ فلانًا وحاكيته فعلت مثل فعله أو قلت مثل قوله سواء أو أجاوزه، وحكيت عنه الحديث حكاية. في حين يعرف أبن سيدة الحكاية بقوله:" وحكوت عنه حديثًا في معنى حكيته وفي الحديث ما سِّرني أني حكيت أنسانًا وان لي كذا وكذا أي فعلت مثل فعله..."(ابن منظور، ٢٠٠٨، ص٩٥٤) أما من منظور فلسفي يمكن القول أيضا هي:" متملقة في الشعر سواء أكان ملحمي أو تراجيدي أو كوميدي ... وغالبية ما يؤلف للصغر في الشاي واللعب على القيثارة وكل ذلك . بوجه عام . أشكال المحاكاة كل نوع يختلف عن الآخر في ثلاثة أنحاء: الاختلاف في المادة المستخدمة والموضوع الذي يحاكي ثم الطريقة المختارة لعملية المحاكاة." (أرسطو، لا.ت، ص ٦٢)

١. ب . اصطلاحًا: تعدّ الحكاية الشعبية من بين الفنون التي لاقت اهتمامًا كبيرًا بين الباحثين، وعلى سبيل الذكر يمكن ان نستأنس بهذا التعريف الذي يعرفها بأنها :"هي وصف لواقعة خيالية أو شبه واقعية أو حقيقية أبدعها الشعب في ظروف حياته، سجلها في ذاكرته، ورواها أفراده لبعضهم بعضًا بمرور الأيام، وثوراتها فيما بينهم عن طريق المشافهة من أجل المتعة والتسلية."(محمد، لا ت، ص٥٨).

كذلك نجد تعريفًا آخر للحكاية مفاده: "تُعتبر الحكاية الشعبية بمعناها الواسع والشامل أحداثًا واقعية حقيقية دون الالتزام بأسلوب معين في القصّ أو ألحكي تختلف من فرد إلى آخر من حيث الطريقة التي تسرد بها الأحداث. في حين أن الحكايات تتضمن مجموعة من الأحداث والأخبار والأفعال والأقوال سواء ... مأخوذة من الواقع الذي

يطلقه الفرد أو المبدع الشعبي ليصوّر الأحداث التي تشكلت في مخيلته ويريد سردها في قالب فني حكائى لإضفاء نوع من المتعة والتشويق ليستمتع بها المتلقي.(عمر، ٢٠٠٨، ص ٥٣٢).

وهكذا يمكن أن نفهم أن الحكاية الشعبية تستمد وجودها من الواقعين النفسي والاجتماعي، وتؤدي دورًا مهمًّا كغيرها من الأشكال الأدبية في إعداد الإنسان لمواجهة الحياة، من خلال مساعدته على فهم هذا الواقع والسيطرة عليه، من خلال الخبرات التي تقدّمها له. وهي تسليه وترفهه في آن؛ فكل حكاية تحمل في طياتها جانبًا من المتعة والترفيه، يعيشها المتلقي وهو يحلق بخياله في أجواء تنسيه هموم الواقع. فعندما تجلس الجدة وتسرد الحكاية، تجد نفسك في قاعة سينما تشاهد فيلم من الماضي الجميل "كالعندليب الأسمر"، وأفلام "أم كلثوم"، و"قصص شهرزاد". وقصص الأطفال تعيدك إلى مرحلة الطفولة كفيلم "رابنزال" أو "سنديريلا" أو"الدبابة الثلاثة وذات الشعر الذهبي"، وغيرها. وهنا نقدّم بعض النماذج من الحكايات الشعبية التي مازال الفرد يحن إليها رغم مرور الزمن عليها.

الصورة رقم١

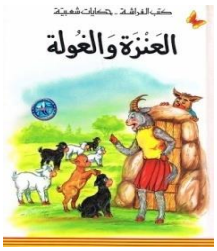

الصورة رقم٢

الصورة رقم٣

الصورة رقم٤

إنّ الحكاية الشعبية هي مزيج بين الواقع والخيال ويكون بطلها إنسانًا وترتبط عادة بالسحر والأبطال الخارقين الذين يمكن لهم أن يتجاوزوا الصعاب، ويتحدّوا الطبيعة بفضل القوة التي يمتلكونها. وهنا يمكن أن نستعين بقصة اشتهرت عالميًّا، وأعاد عدد من المخرجين السينمائيين تجسيد أحداثها في أفلام صور متحركة أو واقعية، وهي قصة "ذات الشعر الذهبي" التي تمثل قصة فتاة استطاعت أن تخرج من سجنها بفضل شعرها الطويل الذي لا يتوقف عن النمو، وبفضل شعرها تكتشف الحقيقة وتعود إلى أهلها.

يجعل هذا الأسلوب من السرد المتلقي يُصور نفسه مكان بطل الحكاية ويُجسد الشخصية على أرض الواقع. وهذا ما يمكن أن نشاهده في الصورة أدناه لفتاة تقمصت شخصية "رابنزال" أو "ذات الشعر الذهبي" لتكون أنموذجًا لها وتعيدنا معها إلى الخيال وتجعل الحكاية حقيقة.

الصورة رقم٥

يرجع تاريخ الحكاية إلى آلاف السنين، أو بمعنى آخر، إنّ نشأتها قديمة قدم الإنسان، ولقد تطورت وازدهرت في أوروبا، ولاسيما في القرن الحادي عشر، حيث ظهرت مجموعة من الحكايات الخرافية في فرنسا مثل حكايات"سي لوي" وفي ألمانيا ظهرت حكاية "ذات الرداء الأحمر" وغيرها من الحكايات الخرافية..

إن هذا الانتشار إنما هو تمازج بين الغرب والعرب فعلى سبيل الذكر لا الحصر قصة "ذات الرداء الأحمر"**(Le petit chaperon rouge)** التي عرفت بأكثر من اسم بموطنها الأصلي في الغرب، أما في الدول العربية فكانت تسمّى "ذات القبعة الحمراء" أو "ليلى والذئب" وغيرها من التسميات، وكلها تدور حول نفس الموضوع هو أن فتاة صغير تعيش في الغابة اعترضها ذئب وهي ذاهبة إلى بيت جدتها...هذا هو المحتوى ولكن الصياغة اختلفت، لأن الحكاية في نهاية الأمر هي تلك الكلمات التي تمتزج بين الحقيقة والخيال.(لوماتر،١٩٨٥، ص ١٩٧). وهذا ما نلاحظه في (الصورة الخامسة) الواردة أعلاه عندما تقمّصت الفتاة الأوكرانية شخصية "رابنزال" وعادت بالذاكرة إلى الوراء لتُذكرنا نحن الكبار والصغار بقصة "ذات الشعر الذهبي" قصة يمتزج فيها الخير والشر والمتعة والفطنة، لأن المتعة التي يعيشها المتلقي هي نفسها التي يروي بها الحكواتي قصته، وبهذا فالسارد والمتلقي معًا يعيدان صياغة الحياة ويعيشان مع الشخصيات بالطريقة المراد بها.

انطلاقًا مما تقدّم ، تؤدي الحكاية الشعبية دورًا في تنمية الثقافة الوطنية وتنقل القيم والأخلاق؛ فالحكاية نتاج فكري أنتجته الشعوب عبر التاريخ، وقد أودعت فيه أروع القصص وأجمل ما مرّت به من أحداث، فجاءت لتعكس خلاصة تجاربها وتعطي صورة نابضة حية عن واقع الأمة عبر مراحل تاريخها الطويل. فهي لا يمكن لها أن تندثر أو تموت:" إن التراث بوسعه الصمود مئات وآلاف السنين ويستمر ببقائه بالحياة." (هايك،٢٠١٠) وهي وعاء يحتوي على الأفكار والمعتقدات، ولها وظيفة أخلاقية وسلوكية، كونها تُعلمُ المتلقي الصبر والحكمة وطريقة الخروج من المأزق فعلى سبيل المثال "الحكواتي عبد العزيز العروي"، وهو راوٍ تونسي، تقدم غالبية قصصه الحل للخروج من المشكلة، وكلها تدرس الواقع السياسي القديم في فترة قبل الاستعمار وبعده. شهرته كانت في ناقوسه النحاسي الكبير وافتتاحيته المشهورة: "يحكيو على سلطان كان في قديم الزمان..."، لتجد الجميع يُنصت بانتباه لما يقوله. ويُعالج في قصصه قضايا اجتماعية ليؤسس بواسطتها توازنًا اجتماعيًّا جديدًا دون أن تفقد الحكاية طابعها الفني الذي يعتمد على الخيال. لذلك يجد الدارس بأن اغلب الحكايات الشعبية في الأدب العربي والأوروبي متشابهة من حيث المضمون، وأنها قد تختلف بعض الشيء من حيث الشخصيات والعناصر الزمانية والمكانية، على الرغم مما يفصل بينهما من مسافات زمنية وحضارية وفكرية، لأنّ الحكايات تخرج من مصدر متماثل واحد ألا وهو العنصر البشري. فمثلًا حكاية المزمار السحري نراها في الحكايات الشعبية الألمانية والحكاية الشعبية العربية على حد سواء، مع اختلاف بسيط في أسماء الشخصيات والأماكن، وكذلك الاختلاف في الوضعية؛ فالحكايات في كلا الأدبين تتشابه من حيث المضمون وهذا ما تؤكدّه أيضًا الأمثلة الثلاثة الموجودة أمامنا:

عنوان القصة	البداية	المحتوى +شخصيات
 الصورة رقم٦: عازف المزمار والأطفال	في ليلة من الليالي الشتوية فتحت كتابًا يحتوي على أروع القصص العالمية...	– عازف المزمار – الأطفال – آهل المدينة – الفئران – الحاكم – خيانة الأمانة

الصورة رقم٧: زمار هاملين	الأسطورة تتحدث عن مدينة هاملن الألمانية الواقعة على ضفاف نهر فيسر والتي غزتها الجرذان فجأة بأعداد كبيرة....	– مدينة هاملن – الفئران – الأطفال – أهل المدينة
الصورة رقم٨: العازف	قد نتذكر قصة الموسيقار الغامضة وعدم تخليص المدينة من الفئران....	– الموسيقار – المواطنين – الأطفال – أهل المدينة – الحاكم

الشخصية نفسها هي شخصية الشاب "عازف المزمار" والعنوان نفسه مع بعض التغيّر، مع اختلاف في استهلال الحكاية؛ ففي المثال الأول، ابتدأت الحكاية بالجملة التالية: "في ليلة من الليالي الشتوية..."، وفي المثال الثاني، يقول الراوي:"الأسطورة تحدث في مدينة هاملن..."، وفي المثال الأخير، تبدأ القصة: « قد نتذكر قصة الموسيقار الغامض..." هنا نجد أن البداية في سرد الحكاية اختلفت إلا أن المحتوى نفسه، وهذا إن دلّ على شيء فهو يدل على أن اختلاف الزمان والمكان لا يمكن أن يغّير من نسق الاحداث. لأن الحكاية تُحكى بمليون طريقة، وهذا هو دوام الحكاية الشعبية التي تصمد أمام المد التكنولوجي والغزو الثقافي بمختلف أشكاله. فعلى سبيل الذكر لا الحصر، يمكن أن نقدّم بعض الافتتاحيات التي تبدأ بها الحكاية. في العراق مثلًا، تكون الافتتاحية كالتالي: "كان يا مكان على الله والتكلان كل من عليه ذنب يقول التوبة واستغفر الله." في تونس:" كان يا مكان في قديم الزمان..." وبحسب موقع أخر وفي مدينة أوروبية وبالتحديد في إسبانيا: «في قديم الزمان، وفي إحدى زوايا الأرض، حيث كان لكل البشر أنوف. "... وبذلك نفهم أنّ الحكايات

الشعبية كلّها تبدأ بافتتاحية معيّنة، وأنّ الرواة لم يتقيّدوا بالتاريخ، بل تصرفوا على هواهم، فكانوا يتناولون الشخصية التاريخية أو الحادثة الواقعية ويضيفون إليها أو يحذفون منها أو يعدلون فيها وفق هدفهم النفسي، وهذا ما يمكن أن نلاحظه في قصة المزمار السحري، ونفهم كيف أن الاسم نفسه وأن الأحداث كلّها تدور حول شاب لديه مزمار سحري وأن هناك مدينة قد تعرضت لغزو من قبل الغزان، وأن أهل المدينة لم يتمكنوا من إيجاد حل إلى أن وصل هذا الشاب ومزماره السحري لتنطلق الحكاية.

هذه الحكاية كانت منتشرة في جميع بقاع العالم تسرد الموضوع نفسه بجميع اللغات، وترسم بطلاً جبارًا، أنقذ البلاد بفضل مزماره الخشبي. كسيرة عنترة ابن شداد وشمشوم الجبار الذي صارع الثيران وأسقط معبد بشعره وفعل المستحيل من أجل حبيبته.

فعندما تستمع إلى مثل هذه الحكايات التي تروى ما كان يحدث في البلاد وما كان يمرّ على الناس في تلك الفطرة فتقول بأنها تخاطب أشخاصًا واقعيين تعلّمهم قيم المجتمع العربي والأوروبي والبدوي والريفي والحضاري، كما أنها تخبرنا عن عادات وتقاليد المجتمع حتى أن السامع يفهم المعنى، ويحاول أن يطبّقه وحتى وإن كان بالقليل، لأنّ الحكاية ما هي إلا مجموعة من العقائد والقيم والقواعد التي يقبلها السامع ويتمثّل بها أفراد المجتمع، لذلك تجد أن للحكاية الشعبية قوة في مواجهة سلوك الأفراد، فهي بمعنى آخر ثقافة ليست علومًا ومعارف جاهزة يمكن للمجتمع أن يحصل عليها ويستوعبها، وإنما هي تنتقل من جيل إلى جيل عبر التنشئة الاجتماعية، ويكون الطفل هو المستفيد الأول من هذه الحكايات التي تعطيه فكرة عمّا كان يحصل في الماضي، وما يجب أن يأخذ منها ويُطبّقه في العصر الحديث، لأن دورها مهم في بعث الروح القومية والوطنية بما يحتويه من أفكار

عميقة، وأحسن مثال على ذلك ما يذكره الشعب الفلسطيني عن نضالاته وبطولاته، ونجد ذلك في أشعاره ومواويله والأهازيج الشعبية، فهي تحرك فيهم الإحساس الوطني والقومي ويبقى الإنسان بذلك مشدودًا إلى الأرض ومحافظًا على هويته.

وهكذا نفهم أن الحكاية قد اختلطتْ مفاهيمُها وتعريفاتُها وأن انتشارها في البلدان العربية كان تحت مسميات مختلفة، وفي الوقت نفسه متقاربة في مضامينها ومحتواها. من بين التسميات التي كانت تطلق على الحكاية الشعبية، في مصر "الحدوتة الشعبية" وفي بلاد الشام "الحتوتة" أما في الجزيرة العربية "السالفة" وفي قطر "الحزاوي" وفي تونس "خَرفْ لي خروفة"(مرسى، ٢٠٠٦).

بفضل الحكايةِ يمكن أن نُعدّ جيلًا كاملًا متوازنًا أخلاقيًّا وثقافيًّا ، وهذا يلتقي مع ما جاء به الباحث الأمريكي جورج لافي ونسون: "ليس اخطر على الشعب الأمريكي من أهزوجة أو حكاية هندية تتندر بها أم أميركية وليس أخطر على الشعب الأمريكي من تراث الهنود الحمر...(ونسون، ٢٠١٣)، لهذا ارتأينا أن نطرح السؤال التالي: كيف يتبدى دور الحكاية الشعبية اليوم في تعزيز الهوية الوطنية؟

٧. أثر الحكاية الشعبية في الثقافة العربية اليوم

"... تدعو الحكاية الشعبية مشاهدها المتخيلة القارئ أو السامع إلى أن يصبح مسافرًا مملوءًا بالدهشة، بما فيها من مشاهد عجيبة تذكّي الخيال وتحرّك السؤال"(كريستيفا،٢٠١٣)، نفهم من خلال هذه الكلمات بأن للحكاية الشعبية دورًا في إعادة التوازن النفسي وإثراء الخيال، فهي تعمل على إعادة برمجة العقل للخروج من الرتوب اليومي بحكم تسارع وتيرة الحياة.

الحكاية الشعبية تتأرجح بين حقول معرفية مختلفة، فهي تارة تُدرس باعتبارها أدبًا يتناولها المختصون في الدراسات الأدبية، وتارة يدرسها المختصون بالدراسات الأنثروبولوجيا، وأحيانا أخرى نجدها محل بحث عند علماء الاجتماع الذين اهتموا بالحكاية من الجانب النفسي ومدى تأثيرها في الفرد. فمن خصائص الحكاية هي أنها تُحكى بأسلوب بسيط خالٍ من الكلمات الصعبة والجمل المعقدة، لأنّ الإنسان في مراحله الأولى يحتاج إلى البساطة في التعامل مع الأشياء، وخاصة في استعمال اللغة والكلمات السهلة "إن الفرد يُتقن لغة التواصل واللغة وعاء يحتوي أسمى ما يمكن أن يتعلق به الفرد من معانٍ"(عزي، ٢٠٠٨، ص ٧٥). وقد كان السارد أو الراوي أو حتى الجدة في مرحلة أولى تتميز بأسلوب فريد في اختيار العبارات لسرد القصة، وتغير الصوت في مواقف معينة من الحكاية لتشد السامع لها. وكانت لا تروى في السهرات والمزارع والحقول بين النساء، للتخفيف من وطأة العمل، وكذلك كانت تعدّ وسيلة لتخويف الأطفال عند الظهيرة بابتكار شخصية تكون نصف إنسان ونصف حيوان. فمثلًا في تونس كانت شخصية "الغول" أو "أبو شكارة" من الشخصيات المرعبة للأطفال أما في الخليج كانت شخصية "أم حمارة" الخرافية التي تتجوّل في الشوارع عند الظهيرة لتمنع الأطفال من الخروج أو تأتيهم إلى البيت إن لم يناموا. وكان ذلك بهدف تهدئة الطفل إما عن البكاء أو لتقليل من شدة الحركة. وأغلب الحكايات تنسجُها الأم من وحي الخيال أو تتذكر حكايات الجدة وترويها بكل حنين وشوق إلى الماضي؛ فهي تحكيها وتتذكر كل التفاصيل وتقاسيم الجدة أو الحكواتي عندما يتفنن في شرح أحداث القصة التي تبدأ بشخصيات واقعية وتتوسط الحكاية شخصيات خيالية بين ما هو إنساني وحيواني، محملة بالذكريات، لذلك ارتأينا أن نستشهد بهذين المثالين: أولا، تقول سيلفيا بلات: " تعودت على البكاء ليلاً، في انتظار شيئًا قد اشتقت له كثيرًا"

(بلات، ٢٠١٥)، أما كارين ماري في الموضوع نفسه فتقول أيضًا:" لو كنت اعلم أنني سأحصل على بعض الليالي فقط بصحبتها كنت أخذت تلك الليالي وأبقيتها بمخيلتي لتبقيني دافئة طيلة حياتي اشتقت لها كثيرًا." (ماري، ٢٠١٥) بمعنى أن وجود الجدة أو الحكواتي أو الأم في الصغر وسرد الحكايات في ليالي الشتاء الطويلة كان بمثابة المغناطيس الذي يُذكي الروح والعقل.

لذلك تجدنا اليوم نسعى إلى عودة الحكاية إلى بيئتنا "الملوثة" بالتفاهات أو بالأفكار الغريبة التي عندما كنا نسمعها في الصغر ننبهر بها، أما اليوم فقد أرهقت تفكير الأطفال بحكم مشاهدتهم الدائمة للبرامج المسجلة. وتقول في هذا الشأن الراوية المصرية لمياء توفيق في حوار أجرته على قناة **الإمارات اليوم** بأن "الحكواتي هو الوسيلة التي تعيد الأبناء من جديد إلى عالم الأحلام، والبعد عن العالم الافتراضي، خصوصًا في الدقائق القليلة قبل النعاس حيث أن حكاية قبل النوم هي سبيلنا حتى لا نترك أبناءنا فريسة سهلة لمخالب التكنولوجيا التي سيطرت على عقول أطفالنا." (توفيق، ٢٠١٨).

من هنا، إن السحر في الحكاية ليس ببعدها الغرائبي، وإنما بإيقاعها اللغوي المنغم الذي يجعلك تُصدق بأن الشخصيات موجودة على أرض الواقع، وأنه يمكن أن نتعايش معها لأنها تشعرنا بالراحة والأمن. وهذا كلّه يعود إلى الحكواتي وقدرته على شد انتباه المستمع لأنه يستطيع أن يلعب بالطبقة الصوتية متى استوجب الأمر، وأن يرفعها أو يخفضَها. وهذا كله، من أجل هدف واحد وهو شدّ المستمع. وهنا نستحضر شهرزاد التي استطاعت أن تراوغ الملك شهريار وتحافظ على حياتها، وتترك بصمة، مازلنا نتذكرها الى اليوم ونقول في أنفسنا "كما قالت شهرزاد"، وهذا كله من أجل

المحافظة على تراث بلاد وحفظ العادات والتقاليد من الاندثار لأن مختلف الدول العربية يقع تميزها بتراثها وعادات شعبها وخاصة في عادات الزواج.

من مهام الحكاية الشعبية تعزيز الانتماء والمحافظة على التراث فأصبحنا اليوم نشاهد في مختلف وسائل التواصل السمعي البصري أو الاذاعي أن العديد من الدول العربية تنظّم مهرجانات خاصة بالحكاية الشعبية بكل تفاصيلها "كالجلسة الدائرية أين تتوسط الجدة في السرد، أو الالتفاف حول عدة الشاي" التي نجدها ما زالت موجودة في بعض المناطق العربية كتونس مثلا. أيضا مازالت موجودة في سوريا مع تغير الاسم "مجلس"، أما في الشارقة فقد كانت عودة الحكواتي بطريقة مغايرة وهي سرد الحكايات عبر موجات إذاعية أين يكون الطابع مغاير لما كنا نسمعه مباشرة ولإضفاء طابع المصداقية على البرنامج تقدمه امرأة، لأننا تعودنا على صوت الجدة وهي تروى القصة، واسم البرنامج "خرايف أم سالم". الذي يُبث في ساعات متأخرة من الليل وهو موعد نوم الأطفال.

أما في تونس فكانت البدايات مع الراحل "عبد العزيز العروي" الذي كان يعد مؤنس العائلة التونسية في القديم بفضل حكاياته التي كانت اغلبها تحمل عِبر وحكمْ وتطرحُ قضايا التي تهم المجتمع، كما انه كان يعطي أهمية للطفل في أن يثقفه بطريقته الخاصة فهو لم يمت في العائلات التونسية لأنه ما زال متواجدًا في أذهانهم رغم رحيله. فحكاياته ما زالت تُبثّ على الوطنية باللون الأبيض والأسود وعلى أثير الإذاعات المسموعة لمن يعشق السهر. أما اليوم فقد أصبحت تقام المهرجانات لإحياء تراث الحكاية الشعبية في كامل الدول العربية التي تريد أن تحافظ على ثرواتها الوطنية من الاندثار بسبب الغزو التكنولوجي. لأن التراث الشعبي لأية أمة من الأمم ولاسيما أمتنا العربية يعد خير

مصدر لاستلهام كثير من الأعمال الأدبية الراقية والهادفة والتي تصلح لأن تكون نماذج تربوية للأطفال، ومن بينها الجزائر، والمغرب، والأردن وغيرها.

وفي ما يلي أعرض صورًا عن هذه الحكايات:

الصـــورة رقم٩ : معلقة اشـــهارية لمهرجان الحكاية/ تونس

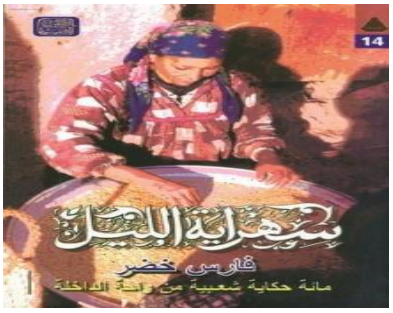

الصورة رقم١٠ : معلقة اشهارية لبرنامج اذاعي

الصـورة رقم١١ : معلقة إشـهارية لبرنامج إذاعي عن الحكاية

- **أشهر شخصيات في فن الحكاية في كل من المغرب، تونس وبيروت**

الحكواتي عبد الرحيم المقوري /المغرب

الحكواتي عبد العزيز العروي/تونس

الحكواتي عماد الوزان/بيروت

الصور الثلاث الأخيرة هي صور لأبرز الحكائين في الوطن العربي: تونس المغرب وبيروت والعقرباوي من فلسطين، وغيرهم ممن تركوا بصمتهم بفضل أسلوبهم وثقافتهم ومعرفتهم بتاريخ بلدانهم. ولكي لا يندثر الحكواتي من ذاكرة الشعوب العربية والغربية تسارع بعض الهواة لإعادة بناء ثقافتهم من جديد، من خلال إعادة الحكواتي

[٢] المهرجان الدولي لفن الحكاية بالمنستير من ٣٠ أكتوبر الى ٠٤ نوفمبر ٢٠١٨، من تنظيم فضاء روسبينا للمسرح بالشراكة مع المندوبية الجهوية للثقافة بالمنستير. برنامج ثري في مناطق مختلفة من كامل ولاية المنستير وبمشاركة مجموعة كبيرة من الحكواتيين المتميزين في هذا المجال من المغرب، الجزائر، الكونغو، الأردن، فرنسا وتونس...

إلى البيوت بطريقة عصرية، من طريق برامج تلفزيونية تسرد حكاية يمتزج فيها الواقع بالخيال مع إضافة بعض المؤثرات كالديكور، الإضاءة والملابس واختيار الشخصية التي ستتولى عملية السرد لتقنع السامع بأن الحكاية الشعبية القديمة قد عادت من جديد.

عندما تحكي الأم حكاية فهي تساعد ابنتها بطريقة غير مباشرة في حلّ مشكلة ما أو الاجابة عن أسئلة تكون في بعض الأحيان محرجة أو صعبة التفسير، وخاصة فيما يتعلق بالزواج لأن الفتاة تحلم بأن تتزوج أميرًا ساحرًا يعطيها كل ما تتمنى، ولكن الواقع غير ذلك، فتجد الأم هنا نفسها أمام موقف يفرض عليها أن تقدم نصيحة الى ابنتها، وتظهر لها أن الحياة عكس ما تتخيّله. وهنا، يمكن أن تقدم لها مثال "فتاة الرّماد"، هذه الفتاة التي رفضت الزواج بعلّة الحب المفقود، مثالاً عن الحب البديل مفاده أنه لا يوجد شخص على هذه الارض يمكن أن يحبها كما يفعل والدها. إذن نفهم أن الحكاية الشعبية هي بمثابة هوية شعب أو أمة من الأمم هي الجوهر الناجم عن مجموع الرموز التي هي بدورها عبارة عن ترميز لحضارة أو ثقافة ذلك الشعب أو تلك الأمة.

الاستنتاجات

١. الحكاية الشعبية من أهم الأشكال التعبيرية التي تقاسمتها جميع شعوب العالم، ولا يكاد يخلو مجتمع من المجتمعات منها على اختلاف أنواعها. فهي سجل حي لمراحل تطور المجتمعات من النواحي الفكرية والثقافية والحضارية على اختلافها.

٢. الحكاية من أحد أهم أشكال التعبير الأدبي القديم الذي عرفته المجتمعات الإنسانية عبر مختلف العصور، حيث احتلت الحكاية مكانة عظيمة في حياتهم. ويرجع ذلك لارتباطها بمواقف الإنسان ومعتقداته إزاء الكون، وهي متطورة بتطور الجماعات المتداولة لها.

٣. الحكاية من أهم مصدر التراث الشعبي، والتاريخ الشفهي، فقد تلاشت في بعض الفترات الزمنية بسبب تركها والتفرغ إلى العولمة الجديدة وتسارع نسق الحياة، إلا أنها بقيت في العديد من الدول العربية محافظة على القيم والمعطيات الثقافية والمعرفية التي تتضمنها؛ فمن خلال الحكاية الشعبية يمكن معرفة الظروف الاجتماعية وحياة الناس وطريقة عيشهم. لذلك تجد الراوي في العديد من المناسبات يذكر السامع بحلاوة

الحياة، على الرغم من صعوبتها ليعلم طفل اليوم مدى صعوبة الحياة، وذلك من طريق سرد الحكايات الأجداد وتراث البلاد.

المراجع العربية

- ابن منظور،(٢٠٠٨). **لسان العرب. مج٢. مادة حكى،** القاهرة: دار المعارف.
- أحمد مختار ،عمر(٢٠٠٨). **معجم اللغة العربية المعاصرة،** (ط١)، مجلد١، القاهرة: عالم الكتب.
- أخبارك، (١٤-٣-٢٠١٩ ٠٣:٢٣). **ربانزال اكرانيا...فتاة تسعى إلى دخول موسوعة غينيس بلقب أطول شعر في العالم،** صور اليوم السابعakhbarak.net/article36167910
- إلياس، ديلمي(٢٧-٥-٢٠١٦).**عازف المزمار والأطفال،** حفريات قلم. https://lyesdilmi.wordpress.com/
- بوراوي، عبد الحميد (٢٠٠٧). **الأدب الشعبي الجزائري،** دار القصبة للنشر: الجزائر
- خضر، فارس (١-١-٢٠١٥، ٠٠ :١٢). **سهراية الليل: حكايات شعبية من اللوحات المصرية،** موقع مصرية عربية،https://www.alraimedia.com/Home/Details?id=4e34ae22-0508-41dc-98fa-64f42efdd1d0
- حرب، طلال (١٩٩٩). **بنية السيرة الشعبية وخطابها الملحمي في عصر المماليك،** (ط١)،لبنان: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر.
- عزي، عبد الرحمن (٢٠٠٩). **الإعلام وتفكك البنيات القيمية في المنطقة العربية: قراءة معرفية في الرواسب الثقافية،** ط١. أبو ظبي: مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم.
- لا. مؤلف (٢١-١١-٢٠١٩ ٧:٤٤). **قصة الثعلب والجرة من الحكايات الشعبية الروسية** مكتبة ال يسر books.yosser.com
- رشوان، حسين عبد الحميد أحمد (١٩٩٣). **الفلكلور والفنون الشعبية،** الاسكندرية: دار الانتصار.
- محمد، سعيدي (١٩٩٨). **الأدب الشعبي بين النظرية والتطبيق،** الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية

- هالة، سويدي (٢٢-٤- ٢٠١٨). **عبد العزيز العروي: الحكواتي الذي يدق الطبول فتنصت الآذان.** مجلة ميم.
- سماح، صنديد(١٣-٢-٢٠٢٠). **حكايات شعبية قصيرة، أجمل القصص الشعبية القصيرة،** تم الاسترجاع (١ آذار ٢٠٢٠ الساعة ١٠ صباحًا) من http://sad-images.net
- الشمري هشام (١١-٥-٢٠١٥). **خواطر عن الحنين،** تم الاسترجاع (١ آذار ٢٠٢٠ الساعة١٠:٣٠ صباحًا) من موقع موضوع/Mawdoo3.com .
- أمينة، فزازي(٢٠١٠). **مناهج دراسات الأدب الشعبي.** (ط١). القاهرة: دار الكتاب الحديث.
- ناصري عيسى(٢٢-٠١-٢٠١٨). **لماذا يحرمون أطفالهم من الحكايات الشعبية؟**مدونات الجزيرةhttps://www.aljazeera.net/blogs/2018/1/22 %D9%8A%D8%A7%D8%AA
- محمد أحمد، النابلسي (١٩٨٨). **فرويد والتحليل النفسي الذاتي** . بيروت: دار النهضة العربية للطباعة والنشر والتوزيع .
- عبد الحميد، يونس(١٩٦٨). **الحكاية الشعبية،** القاهرة: المصرية العامة للتأليف والنشر، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر
- حبلي، وسيلة محمود(١٩مايو٢٠١٠). **التراث الشعبي الفلسطيني ملامح وأبعاد: محاولة توثيق ضد سرقات صهاينة.** مجلة الرياض، فقرة٤، العدد ١٥٣٠٤ ، تم الاسترجاع (١ آذار ٢٠٢٠ الساعة١١:٠٠ صباحًا) منجريدة الرياض (alriyadh.com).